

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الحسین

١ مارس (آذار) سنة ١٩١٧ - الموافق ٧ جمادى الاولى سنة ١٣٣٥

لورد كرومر

لحق البرق قطبة من اقطاب الامبراطورية البريطانية وادارها حازماً من اشهر رجال الادارة في هذا العصر ومصلاً عظيماً بات اسم مصر الحديثة مقروناً باسمه لما كان ينفذ بينها من شديد الارتباط في دور اصلاحها وارتقائها الاخير : ألا وهو لورد كرومر صديق وادي النيل وسكانه واعظم الذين وضعوا في عهد الاحتلال البريطاني اساس اصلاحهم وتقديمهم ووطدوا اركان الامن فيه وحمسوا حاله المادية والادبية ورفعوا منزلته ونظموا حكومته وليس المقام مقام ايراد تاريخ الراحل الكريم واحصاء اعماله النافعة والبحث في تأثيرها العظيم في حاضر مصر ومستقبلها وفي حالة سائر بلدان المشرق المجاورة لما قلنا لا تزال قريبين من عصره ولم يعتمد عنه البعد الكافي لنراه من جميع جهات وانه بجميع ما جرى فيه من جلائل الاعمال وشاهد تأثيرها في ارتقاء الامة المصرية وسائر امم المشرق التي تنظر الى هذه البلاد نظرة الاعجاب الثقرون بانقطة

اناس يقولون اليوم كان لورد كرومر عظيماً وسان شمه يفاً وكان زهيراً واسع الصدر كبير القلب كبير العقل بعيد النظر مسوع انكسرة . ويقولون الذين عرفوه وعاشروه وخالطوه سرّاً كانوا من تلاميذ في السياسة والادارة من اسدقار وسراليه ان لورد كرومر كان اسدق صديق لمصر والمنصرين بين الاجانب الذين قدّر لهم ان يشتركوا في حكمها وادارة امورها . وسياق في زمان تجبى فيه هذه منديقة للخاص والعام يعرفها جميع ابناء هذه الديار كما عرفها الذين اتبعوا لم معرفة . صاحب مصر ووقفوا على نباته وما كان في توادده من الرغبة الخالصة في خير هذا القطر وتقديمه مصلحة سكانه عن غيره .

ان تاريخ لورد كرومر في الشطر الاخير من حياته تاريخ مصر وسير حركة الاصلاح

نينا فالدي يكتب سيرته من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٩٠٧ يكتب تاريخ الارثقاء والاصلاح في هذا القطر في تلك السنين الطويلة التي جازت مصر فيها دوراً من اهم ادوار وجودها وخرجت منه بعيد ذلك سلطنة راقية عديمة النظير في الشرق الاذنى تهتز بنظام اداري راقى ونظام قضائي عتيد ومالية قلما يوجد لها مثيل في غير اعظم دول الارض ثروة ومقارناً ونظام ري بات اعجوبة المصور وحدث كبار المهندسين . واذا لم يكن التقدم في سائر اركان الحضارة والمدنية قد بلغ مبلغه فيها فلأن من الاعمال ما يقتضي بطبيعتها زماناً اطول من الزمان المطلوب لسواءها اشغلت المزيمة وحسن التقصد وبذل من الماعي والجهد .

اليوم يقف الفلاح المصري يرثى الطرف القهري في تاريخ الزراعة والضرائب فيذكر ما كان يعاني من المشقة والنفقة في ارواء اطيانه التي كان فداتها يباع بيضعة جنهيات وما كان يقاضي من الماء في نقل حاصلاته الى الاسواق وما كانت يستهدف له من الظلم في دفع الضرائب والرسوم التي لا تخص في مواعيدها وفي غير مواعيدها . يذكر ذلك كله اما لانه خبره بذاته واما لانه سمعه من سلفه فيحمد الله تعالى على نعمه ويذكر بانظر الذي كان اكبر ساعه تصحين حانة الري وضبط نظام الضرائب والرسوم وتسييل اسباب النقل والانتقال واعناء الفلاح من ضرائب كانت تهبط عاتقه واقاذو من المرابين الذين كانوا يمتصون دمه ويمشون في ترف ونعيم على اعبه وكدم .

واليوم يقف المتقاضون امام المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعية والمحاكم المختلطة فيذكرون الرجل الذي باضل اعظم نضال لاصلاح حال تلك المحاكم سواء كان يرفع منزلتها او باختيار الاكفاء من ابناء مصر للجنوس في منسة القضاء او بالدمي لسن القوانين الثلاثة لحالة القطر وحل سكانه او بتنظيم دوايرها ودفايرها واوراقها او بالاهتمام بتوليبتها حتى تنال من المية وانكرامة ما يحق لها بحكم اشتغالها بتوطيد اركان العدل والحكم بين الناس بالانصاف

واليوم يقف الصناع ذاكرين للورد كرومر الغاء الضرائب والرسوم التي كانت تعجز عنهم وتقيدهم في سائر اعمالهم وعدم مطابقتها لقواعد الاقتصاد السياسي شرعية في كل بلاد تنزع الى الارثقاء والعلاء .

واليوم يقف التجار يذكرون للورد كرومر مساعيه الحميدة في توسيع نطاق التجارة وترويجها وتنشيطها سواء كان بتنظيم المرافق والارصفة او تسييل المواصلات بسكك الحديد والنيل والبريد والتلغراف والتلغون او بتشيط العاملين على زيادة ثروة القطر بتجسين زراعتهم التي هي مصدر غناه وركن تجارتهم

واليوم يقف محبو العلم ونشر التعليم ذاكريم لراحل الكريم سعيه في توسيع نطاق العلم ونشر لواء المعرفة والجهاد نهضة اديبة عميلة في انحاء القطر كان من نتائجها ما نشاهد من انتشار المدارس في المدن والبادر والقرى الكبيرة وشعور اعيان البلاد بوجود مد يد المساعدة الى الدين لا تمكنهم حالتهم المالية من ارتداد العلم الذي هو حياة الامم واساس عزها وعتوان مجدها

سيحفظ التاريخ للورد كرومر هذه الامور وسواها ويذكر له ولجميع الذين ساعدوه من المصريين والاجانب الفضل العظيم بحسن التصدي وفضاء زهرة العمر واتفاق قوة الشباب والكنهولة والشجوخة في عمل الاصلاح وتوطيد اركان الامبران

وسيدكر التاريخ للورد كرومر انه بعد ما اقام في مصر ٢٤ سنة قاست في اثنتائها اعظم المشروعات المالية والاعمال الهندسية خرج من هذا القطر وهو افقر في ثروته الشخصية منه لما جاءه سنة ١٨٨٣ . ويذكر له انه كان شديداً في الحق لا تأخذه فيو لومة لائم لا يكس عن الظلم ولا يستهوي الباطل وانما كان محمداً بالشجاعة الادبية . وقد بث هذه الروح في كثيرين وشدد عزائم الفضلاء والمصلحين وانما فتح باباً لكل مظلوم كبيراً كان او صغيراً وانما كان واسع الصدر عالي الهمة بعيد النظر في امور الادارة وتصاريح السياسة واذا قصرنا الكلام حتى الآن على مصر فليس ذلك لاننا نسبنا السودان بل لان معظم اعمال الراحل الكريم الجليلة كانت في هذا القطر ولكن السودان مدين له بجياته الجديدة وخلصه من ربة المهديّة وظلم التعاشي والخراب والدمار اللذين جعلاه قفراً بلفصاً وقافاً منصفاً فالسودان شريك مصر في ما جنت من فضله وظلمه وخبرته وحكته وحبه لوادي النيل واهله

وسيدكر التاريخ للورد كرومر ان نهضة مصر في عصره كانت اكبر عامل في ثورة المواطنين التي شاهدناها في سائر بلدان الشرق الادلى المجاورة لهذا القطر فان ارتقاء مصر فتح العيون في تلك البلدان الى ما تستطيعه فواتية غاما اتيح لهذا القطر فترست فيها بزور النهضة العقلية والادبية والسياسية التي شينا آثارها تبين هذه الحرب الفروس . ومع ان لورد كرومر لم يتعرض لامور تلك البلدان مباشرة مراعاة للاحوال السياسية الدولية فقد كان اعظم مسند للذين جأوا الى هذا القطر فراراً من الظلم والاستبداد فذنه حكامهم ودافع عنهم وهم وارلامهم واخوانهم وخلصهم بذكورته لهذا الفضل على مدى العمر لم نغم مصر انكرومر حتى الآن محمداً ولا انتدأت تذكارة مادياً ولكن ذكراه منقوشة

في قلوب جميع الذين جنوا الخير والنفع من وجوده في هذا التطر والذين قبض لهم النفع بعرفته والعلم بفضلته وصفاته لجميع هؤلاء بشاطرون اليوم الامة البريطانية العظيمة وعائلة بارنج الكريمة الحزن والاسى على فقد هذا المصلح العظيم والقطب الكبير ويسألون الله ان يعزي قلوبهم ويحمل حياة الفقيد قدرة صالحة لجميع الذين سلم الاقدار اليهم زمام الشعوب ليسيروا بها في سبيل التقدم والارتقاء معتدين على الحق والعدل والنشاط والاجتهاد والنزاهة والامانة التي هي اخلاق الكرام واركان مجد الشعوب وعنوان حضارتها ومدنيتهما

ترجمته

ولد لورد كرومر في ٢٦ فبراير سنة ١٨٤١ وهو النجل التاسع للمرحوم هنري بارنج من آل بارنج المشهورين في انكلترا وكانت والدته كريمة الاميرال وندهام . تلقى علومه في احسن مدارس انكلترا وجامعاتها وامتاز على الفوائد بأداب اللغتين اليونانية واللاتينية ثم دخل المدرسة الحربية . وفي سنة ١٨٥٨ انضم في المدفعية الملكية وخدم فيها الى سنة ١٨٦١ لما عين ياوراً للسر هنري ستور كس الحاكم العام للجزائر الايونية ثم سكرتيراً له في اثناء تحقيق العصيان الذي حدث في جزيرة جاميكا سنة ١٨٦٥ . ورفي سنة ١٨٧٠ الى رتبة كبتن ثم عين سكرتيراً خاصاً لابن عمه لورد نورثفوك حاكم الهند وظل منتقداً لهذه الوظيفة الى سنة ١٨٧٦ لما رقي الى رتبة ماجور ومنح نشان كوكب الهند من الرتبة الثانية وعين مندوباً بريطانياً في ادارة الدين العمومي المصري . واعماله في هذه الادارة معروفة عند القراء لا تحتاج الى تبيان فانه كان صاحب التقرير المشهور الذي اصدرته لجنة التحقيق في سنة ١٨٧١ . ولما تنازل اخديوي اسماعيل عن الاريكة اخديوية سنة ١٨٧٦ عين الماجور بارنج مرافقاً بريطانياً عاماً وصار اليد العاملة في المرافية الثانية ولوبقي في مصر حينئذ لتغير تاريخ مصر الحديث على ما يظن وسار في عهد المجرى الذي جرى فيه ولكن حكومة شعرت باحتياجها الى خدماته في الهند فعين عضواً مالياً في المجلس الخاص للحاكم العام في عهد اللورد ريبون سنة ١٨٨٠ وظل في هذا المنصب الى سنة ١٨٨٣ لما أعيد الى مصر وعين فيها وكيلاً بريطانياً ونصلاً جنرالاً ومتممداً مقوضاً في السلك السياسي . وقد شارك وراه الأثر المذكوراً في مالية الهند وكافأته حكومته على خدماته هناك بنشان كوكب الهند من الدرجة الاولى وهو يجوز حامله لقب سر

ولما وصل الى مصر سنة ١٨٨٣ رأى الادارة معتلة مختلة والنظام مفقوداً وكانت الحكومة البريطانية قد رغبت ايام المستر غلادستون في ان تجعل الحكم في مصر دستورياً

ولكن العوامل المشهورة كانت معدومة من البلاد حينئذ فوافدت اللورد دفرين الى مصر وعهدت اليه في وضع دستور خاص بها فقدمها وبعد البحث والدرس رفع تقريراً مسهباً الى حكومتهم لم يترك شاردة ولا واردة الا ضمنها اياه ولكنه كان مثل الطيب الذي عرف الدواء ولم يهتد الى الدواء النافع فلما جاء السر افان بارنج بعده وجد القديم مفروكاً على قدميه وكان المهدي قد شق عصا الطاعة في السودان في سنة ١٨٨٢ ورفع راية العصيان على الحكومة المصرية وعظمت هيئته بين مرابعه واستغل شأنه ومالائه البلاد كلها تقريباً فاستشير صاحب الترجمة في امره فاشار باخلاء السودان وتركه للمهدي الى حين قامت عليه قيامة الصحف والكتاب حينئذ وانتقدوه اشد انتقاد ولكن مجرى الاحوال صوب راية الخطأ رأيت خصومهم ومنقادهم . ومعها يكن من الامران اشارته هذه دلت على صدق مزموه ورياسة جاشيه وظهرت انه من لا يخجلون القلص من البعثة الملقاة على عوائقهم . وجارته الوزارة البريطانية على رأيه هذا وقررت الحكومة المصرية الجلاء عن السودان وتقرر في الوقت عينه اتخاذ الحامية المصرية في السودان وادى هذا القرار الى وقوع الاختيار على الجنرال غردون لهذه المهمة تعارض صاحب الترجمة حكومته في ذلك مرتين ولكنه خاف ان يكون محطاً في حكمه في الجنرال غردون فلما استشارته في اختياره للمرة الثالثة سلم بذلك ولكن ذهب الجنرال غردون الى السودان لم ينفذها من المهديوية كما لا يخفى

ومرت السنون وضعت لواء المهدي وخلفه عبد الله التعايشي من جراء الفتن والثورات الداخلية وكان الايطاليون في مصوع والبلجيكيون في الكونغو والفرنسيون في السودان اغربي تد اقتربوا تدريجاً الى وادي النيل بحان الزمان الذي ثبت فيه مصر مسألة السودان وهن تسترجعه او تترك اعالي النيل لاناس كانت سياستهم متناهية لياسة بريطانيا العظمى ومصالحهم معاكمة لمصالحها في القطر المصري . وعرف اللورد كرومر شائب بصيرته وبعد نظره الوقت الذي يجب فيه الاقدام على العمل كما عرف الوقت الذي يجب الاجتهاد فيه عنه لما اشار بالجلاء عن السودان فتقرر بحسب اشارته تسيير حملة على السودان فسارت تلك الحملة بقيادة المرحوم اللورد كشر واسترجعت السودان

وكان اللورد كرومر نسيب كبير في المفاوضات التي تلت ذلك بين بريطانيا العظمى وفرنسا وادت الى عقد الاتفاق المشهور في ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ وهو الذي تمهدت فيه فرنسا ان لا تعرض لشؤون مصر ولا تعرقل اعمال بريطانيا العظمى فيه وترك الحكومة المصرية الحرة التامة في الامور المالية

واعثت صحبة في سنة ١٩٠٧ فانظر الى الاستغناء بعد ما خدم مصر والمصريين ودولة ايضاً ٢٤ سنة بالصدق والامانة والاخلاص وكافأته حكومتها على خدماته الجليلة بمخمين الف جنيه

وكان لوداع مصر شأن كبير فاجتمع امراء مصر ووزراءها وعلمائها وادباؤها ووجهائها في الاويرا الخديوية وخطب في حفلة الوداع مصطفى باشا لهي رئيس النظار نيابة عن الوطنيين والكونت ده سربون نيابة عن الاجانب فاجابها بخطبة نفيسة عربتها ونشرناها في صدر متنظف يوليو سنة ١٩٠٧ - ولا بد من ان يكون قد رأى قبل وفاته ما حققه لراسته في مصر والمصريين فان الذين كانوا يجاهرون بانتقاد سياسته صاروا الآن من اكبر المعترفين بفضل المجاهرين بشكروا اما هو فلم ينس احداً من الذين لم اقل منهم في خدمة هذا القطر والمساعدة على الاصلاح الذي تم فيها . وقد كذب الناحين مغادري القطر المصري يقول :

DEAR DR. SARBOU,

I regret that I should be obliged to leave Egypt without shaking hands with yourself, but I am sure that you will have understood the circumstances. I hope that you will accept the enclosed photograph of myself as a slight souvenir of our past relations and wish it the expression of my sincere thanks for the powerful assistance which you have rendered for so many years to the cause of intellectual enlightenment and moral development in this country.

وترجمة ما يخص المتنظف من ذلك « ارجو ان تقبل صورتي المرسله اليك طي هذا كتذكارة لطيف املاتنا الابقه ومعها شكري المخلص للمساعدة الكبيرة التي ساعدت بها مدة سنين كثيرة الارتقاء العقلي والادبي في هذه البلاد »

وكتب بمنل ذلك الى الدكتور عمر واهدى اليه كتاباً سياسياً من مكتبته وقد قلنا فيها كتبناه عنه حينئذ انه كان لوداعه في محطة مصر احتفال عظيم جداً ولاستقباله في مدينة لندن احتفال اعظم منه وقف فيه وفي عهد ملكها الملك الحالي واخوه حاسري الراس ووزراء الحكومة الانكليزية وقواد جيشها وذوو المقامات العالية ورحبت به الجرائد والمجلات الانكليزية ترحيباً بدلاً عن انها تعده اعظم رجل قام في الامة الانكليزية ولا غرابة لان القلاء ينظرون بعين العقل الى النتائج الخاسرة والمستقبله والفضل بعرفه ذويه

اما الرتب التي اتمت عليها حكومتها بها فهي رتبة بارون سنة ١٨٩٣ ورتبة فيكونت

سنة ١٨٩٧ ورتبة ارل سنة ١٩٠١: وعنده من النياشين نشان صليب الحمام الاكبر ونشان الامتياز والوشاح الاكبر من نشان القديسين ميخائيل وجورج وكثير سواها وكان عضواً في الجمعية الملكية ودكتوراً في الآداب من جامعي اكسفورد وكيردج وله تأليف عديدة اشهرها « مصر الحديثة » و « حب التوسع قديماً وحديثاً » و « عباس الثاني » و « ثون الحرب » وكتب حرية اخرى وتترجمات كثيرة عن الكتاب اليونانيين القدماء ومقالة نفيسة عن هوميروس وآخر منصب عمومي عهد اليه في رآسة اللجنة التي تحققي الآن في حملة الدردنيل وقد اشترك في كثير من المباحث السياسية والادبية في بلاده وكتب مقالات عديدة في الصحف فكانت الجرائد الانكليزية تنسب الي نشرها لما لصاحبها من سمو المكانة والاحترام في نفوس الناس واشتهار بالسرعة وتوضي الحقيقة والصدق في كل ما يقوله أو يخطه . وقد كانت وفاته في ليلة ٢٩ يناير الماضي

السردورد برنت تيلر

لما زرت البلاد الانكليزية في صيف سنة ١٨٩٣ كان الحر قد ضرب اطناباً فيها بما لم يعهد له شيل فتصدنا مدينة اكسفورد ولتينا فيها صاحب الترجمة السردورد برنت تيلر وقتلنا في ذلك ما نصه

« ولم نبلغ مدينة اكسفورد حتى تضرمت الهواجر وانصرت المعامع

بيوم لرون القم يضل بحور غريضا الي اصحابه وهو منضج

فاذكري في ايام الخمسين ولو خلا من لواقها . بل الحر في تلك البلاد اشد وطأة على ساكنيها من اشماسين علينا لان بعضهم يقمع به وقتلا نسع عن احد تقع في بلادنا . ولما وفنا القطار وخرجنا الي المدينة التفت بيمة ويسرة فاذا انا

يلله اغبر مصفود الحرب لو قدغنا الكتبان فيه لالتهب

فراكد اصدق اني في اكسفورد التي سارت بذكرها الزكبان ونشاً فيها بحجة رجال الانكليز وزهرة قبايهم حتى مررت بين المدارس فرأيتها تنافس في التقدم وتناطح بصواعمها السحاب وقد شيب الدهر نواصيها والسها ثوب المهابة والوقار . ولم أكد اصدق ان عمر اقدمها بضع مئين من الستين لانا نعد سني مبانينا القديمة بالالوف لا بالئات